قصة قصيرة | قصة قصيرة | قصة قصيرة | قصيرة

صحراء

إ٠و

منشورات الواحة

صحراء

إ.و

© جميع الحقوق محفوظة لدى منشورات الواحة.
عنوان الكتيب: صحراء.
تأليف: إ.و.
نوع الكتاب: قصة قصيرة.
الناشر الإلكتروني: منشورات الواحة.
الرقم الدولي **EBIN**: 38-017-1-230923

لمتابعة جديد منشورات الواحة:

واتس: 00967779284583

إنستقرام: **manshurat_alwaha** تيليجرام: 9dWSGDis.gd/

يسمح بنشر محتوى هذا الكتاب بأي شكل من أشكال النشر الإلكتروني فقط مع تضمين وسم: (#صحراء).

ولا يجوز اقتصاص أي جزء من هذا الكتاب بهدف إهدار حقوق الملكية الفكرية أو إعادة إنتاجه بشكل مادي أو معنوي إلا بموافقة المؤلف.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي منشورات الواحة

منشورات الواحة

الماضي سيظل يلاحقكَ ككابوس لن تنجو منه.

الإهداء:

لكُل ما أخفيه من الماضي، وما أخشى حدوثه بالمُستقبَل..

مدخل:

يختلط علينا الكذب بالحقيقة، فلم نعُد نميز أيهما كذباتنا وأيهما الحقائق، فنخلِط بين الوهم والواقع حتى نفقد القدرة على الإدراك، وعلى فهم وتمييز أيهما واقعنا وأيهما الوهم ولا أين الحد الفاصل الذي يجب أن نتوقف عِنده، نُفضّل الهروب إلى الخيال البعيد لمجابهة هذا الواقع حتى نُصاب بالانفصام الشخصي، ولا ندري أي شخصية هي تلك التي نكُون عليها نحُن ولا ما كُنا عليه من قبل، تختلط علينا الألوان، الأسود بالأبيض، ونفقد الرؤية الواضحة كما لو أننا مُصابون بعمى الألوان، تختفي الأشياء من حولنا ويسيطر علينا القلق، والشعور المُريب وتراكُمات الأحداث السيئة حتى نُصاب بالهلع، ثمّ بعد ذلك الغموض، الخوف من القادم يجتاح حياتنا، فيتحكم بنا، فنصبح لعبة بيديِّ الشكّ والخوف فتقضي علينا مخاوفنا وكل ما نخفيه من الماضي عن المُستقبل يُصبح الوهم الذي يَقضي علينا!

كُل ما تخاف حدوثه، سيحدُث بلا شَك!

1

في إحدى اللّيالي، وفي تمام الساعة الثانية عشرة تحديدًا، رن هاتفها، فمدتْ يدها تتناولهُ بكثيرٍ من الكسل والرغبة في عدمِ التحدُّث مع أحد..

نظرتْ للمتصلِ، فلم تتردد كثيرًا قبل أن تُجيب، ثوانٍ حتى سمعتْها تقول:

- مرحبًا!

-أهلاً؟

-اتصلتُ فقط لأوكد لكِ الموعد، لقد حجزتُ لكِ في الغد تمام التاسعة صباحًا؛ هل ستذهبين؟

-سأفكر..

-حسنًا، فكري جيدًا، فلن تخسري، حان الوقت لتحاولي قتل مخاوفكِ، إلى متى ستبقين أسيرة ما حدث في الماضي؟ لقد مضتْ أعوامًا على ما جرى، ولكنكِ لم تنسِ، كما لو أنهُ حدث الآن؛ إلى متى ستجعلين الماضي يتحكم بكِ؟ فكري أرجوكِ، فكري مليًا.

والآن سأتركك لتفكري جيدًا قبل الغد، وداعًا.

أغلقتْ الهاتف وأعادتهُ إلى مكانه، ثم بدأتْ تُفكر: ماذا سيحدث حينما يحل الغُد؟ وما الذي سيكون بانتظارها إذا وافقتْ على الذهاب؟

لا ترغب بفعلِ شيءٍ أبدًا، وكما أنها موقنة أيضًا أن لا شيءَ سيتغيَر، وإنما تُريد قتل الأمل لديهم ورغبتهم في حصول المُستحيل، ولكنها راحتْ تتساءل: هل يستحق منها كل هذا الجُهد؟!

ففي معتقدها لا شيءَ يمكنه إنقاذها، فات الوقت كثيرًا على ذلك، وكل ما تفعلهُ سيكون مضيعةً للوقت، ولكنها منذ زمن قد توقفتْ عن الاهتمام بالوقت فماذا ستخسر ؟!

كانت أفكارها مُضطربة، ولا تستطيع الجزم بما تود فعله، ولم تكن تستطيع التفكير بشكلٍ صحيح، فالتساؤلات حول الغد تُسبب لها الأرق وصداع الرأس، فتفقد قدرتها على التركيز والفهم، لذلك قررتْ ألا تفكر، قررتْ أن تنام فقط وليأتي الغد وسترى ماذا سيحِل بها!

حيث نامتْ خائفةً متوجسة بالقلق، سترى في هذا المنام الكثير من الكوابيس والكثير من الحقائق والأوهام التي ستقضي على رأسها، والتفكير الذي سيقتلها قبل أن ينبلج الصبح وينتهي ليل الأرق..

استيقظتْ صباحًا وهي تشعُر بأنّ رأسها سينفجر من كثرة الألم، وجسمها متكسّر، وكأنها لا تستطيع الوقوف، وكل ذلك بسبب الكوابيس التي رأتها.

ذهبتْ إلى المطبخ وأعدتْ لها كوب قهوة، ثم راحت تفكر فلم يتبقَ على الموعدِ إلا القليل، هل تستعد وتذهب! أم ترفض كُل الفكرة وتعاود النوم مجددًا؟!

كانت تتساءل كثيرًا، بينما رنَّ هاتفها فردتْ قائلة:

-أهلاً، ما زلتُ لم أقرر بعد.

فأتاها الرد: ومتى ستفعلين ذلك؟ اذهبي للمرةِ الأولى، وإن أردتِ أن لا تُكملي فلن أجبركِ، هيا تشجّعي، فأنتِ لن تخسري شيئًا.

فقررتْ أن تتخلص من كل كلامها ونصائحها لها، لذا قالت: سأذهب، ولكن لا أعدكِ أنني قد أُكمل، ولا تسعدي كثيرًا، فإنني متأكدة لن يكون لهذا نتيجة، لذا توقفي عن إصراركِ عليّ؛ والآن عن أذنكِ، سأذهب واستعد للزيارة.

وأقفلتْ الهاتف لتجهِّز نفسها..

بعد ساعةٍ تقريبًا ها هي تقف في صالة الانتظار، و تجلس إلى جانبها امرأة ومعها طفلة صغيرة، وعلى الجانب المُقابل لها عجوزٌ كبير في السن، ويبدو عليه أنهُ مُصابٌ بالخرف.

راحت تتأمل ملامحهم، وتتنقّل بين وجوههم في انتظار أن تسمعهم ينادون اسمها للدخول..

قليلاً ثم أتتْ إليها السكرتيرة: تفضلي، أنهُ موعدكِ يا آنسة، الدكتور يناديكِ للداخل .

كانت جالسةً أمامه وهو ينظر إليها، تبدو قلقة وصامتة، لم تتحدث، وفي محاولةٍ لكسر صمتها وتقليل من توترها بدأ بالحديث قائلاً:

-مرحبًا، كيف صحتكِ؟ حدثيني عنكِ وماذا تفعلين؟

أجابت: بخير، ولستُ أدري ماذا أفعل، فأنا هُنا أمامكَ أُجيب على ما ستسأل عنه.

أجابها: ومن قال أنكِ هُنا لأسألك؟ ليس لديَّ شيءٌ أسألكِ عنه، أنا هُنا لأسمع ما تقولين لي..

-وماذا سأقول لكَ؟

-لا أدري، تحدثي عن نفسكِ، ابدئي تلقائيًا، أخبريني لماذا أتيتِ إلى هُنا؟ هل أنتِ مُقتنعة بالجلساتِ العلاجية؟ أم أنكِ أتيتِ مُرغمة على ذلك؟ ما الذي يدفعكِ لحضور هذه الجلسات، ماهي حياتُكِ بالضبط؟

-انظر، لقد طرحتَ قائمة أسئلة ولا أعرف على أيُها أجيب! ألم تقُل أنكَ لن تسأل؟!

-أنا اشجعكِ على الحديث فقط؛ حسنًا، ابدئي من حيثُ شئتِ، من أول فكرة تخُطر ببالكِ.

-حسنًا، سأعرفكَ على نفسي..

اسمي صحراء، وربما أنا حقيقةً كأسمي، لا حدود ولا نهاية لما يحدُث معي، سمّاني والدي بهذا الاسم لأن والدتي أتتْ بي خِلال تنقُلهِم في رحلةٍ إلى الصحراء، وذلك ما ألهَمهُ هذا الاسم.

أما عمُري، فأبلغ ألفًا من الخيبات والمعاناة والبؤس، ولا أملك من العمر سوى عشرون سنة، وكل هذا كثيرٌ على عمري.

-هل تخرّجتِ من الثانوية؟

-نعم، تخرّجتُ من الثانوية حين كنتُ بمنتصف السابعة عشرة من عمري، كنتُ أريد أن أكمل دراستي الجامعية، ولكنني توقفتُ عن ذلك، والآن اعُيش هكذا روتين يومي مُتكرر؛ ليس هناك الكثير لأخبركَ عنه، إنها نفس التفاصيل المُعتادة منذُ سنوات، ولا أظن الحديث عنها سيُغير شيئًا، وهذا كُل ما أعرفُه عني.

كان ينظر لها بتعجُب، يا تُرى ما الذي عاشتهُ هذه الفتاة بعمُر العشرون حتى تبدو لها الحياة كئيبة هكذا؟ ما الذي أطفأ ملامحها وجعل الحُزن يكتسي وجهها والغموض يعتليها! من الذي جعل منها جسدًا بلا روح، وبأي ذنبٍ عوقبَتْ، أو أي ذنبٍ ارتكبتهُ لتجني كُل هذه الملامح والبرود، لتصبح غير مبالية بحياتها وموتها؟ ماذا يمكن أن تكون قد فعلتْ أو ماذا قد فعلوا لها؟!

ثم قال: صحراء، تشرفتُ أنهُ اسم جميلٌ وغريبٌ عليَّ، وغامض مثلكِ، ولا متناهي الأحداث أيضًا.

لم تتفوه بأي شيءٍ..

ثم عاد ليقول لها: أ لن تُضيفي شيئًا آخر على كلامكِ السابق؟

هزّت رأسها بـ لا.

فقال: حسنًا، انتهى الموعد، إذا أردتِ بإمكانكِ حجز موعدٍ آخر، والعودة متى شعرتِ أنكِ بحاجة إلى ذلك.

ثم نهضتْ وهي تنظُر إليه: ألن تطرح عليَّ سؤالاً؟

فأجاب بـ لا.

خرجتْ من عنده تعتلي ملامحها الدهشة، وهي التي ظنّتْ الأمر كالإختبار، أحدهم يسألُها وهي تُجيب عليه! ولا يهمهُ إجابتها، إنما يسأل بدافع الفضول أو المهنة، وما اعتاد أن يفعلهُ مع كل الذين من قبلها!

أما هو فعرف أنها شخصٌ صامت، وصعب المراس، وسيكون عليه أولاً كسب ثقتها إن أراد أن تعود، ومعرفةَ بقية الحكاية، كان عليه أن يبدو بعكس ما تظن أنها ستجدهُ، حتى تشعُر بتحسُن وتشعُر بالتغيير من حكمها المُسبق على تجربتها بالفشل، لذلك كان يجب عليه السكوت وحثّها هي على التحدُث على غير العادة كما اعتادت أن تكون الشخص الذي يسمع ولا يتحدث..

أما هي، فعادت إلى المنزل، وكانت تتساءل حول ما حدث اليوم، وهل ستكمل العلاج؟ هل تذهب إلى الموعد القادم أم تنسحب؟

أما هو، فكان يعتقد عودتها مجددًا، وواثقٌ بذلك، فهل سيكون على حقٍ في اعتقاده؟

2 |

"لولا أنه لم يكُتب لي الرسائل، لظننتُ أنني شبحٌ غير مرئي!"

في الساعةِ الواحدة ليلاً، رن هاتفها مُعلنًا عن وصول رسالة إليها، فتحت الهاتف، فوجدتْ رقمًا غريبًا، وقد كتّب لها:

مرحبًا صحراء، كيف حالكِ اليوم؟!

تجاهلتْ الأمر، ووضعتْ هاتفها على منضدة السرير، وراحت لتغرق في أفكارها مُجددًا، حتى قاطعتها إضاءة الهاتف مُعلنةً وصول رسالة جديدة:

لقد عاد ليكتُب مرةً أخرى

حسنًا يبدو أنكِ مُصرّة على عدم التحدث!

ولكن أخبريني، هل راودتكِ الكوابيس مجددًا؟!

لقد أثار الأمر فضولها، ولكنها قررتْ ألا تنجرف معهُ، فـ أقفلتْ هاتفها، وعادتْ على حالها.. حتى غلبها النوم.

استيقظتْ مُبكرًا كالعادة، فهي لا تستطيع أن تنام كثيرًا، حيث ينتابُها القلق والكوابيس المُزعجة، أعدتْ لنفسها القهوة، حيث أنها لا تستطيع أن تأكل شيئًا طيلة الصباح، فهي دومًا تكتفي باحتساء القهوة السوداء، وراحت تقرأ

الكتاب الذي توقفتْ بمنتصفهِ كي تُشغل ذهنها عن كُل شيءٍ يُقلقها..

وثم وهي تتصفح الكتاب، وصلتها رسالة مُجددًا، مكتوبًا بها:

مرحبًا، متأكدٌ بأنكِ ما زلتِ على حالكِ، ولن تعاودي الرد على رسائلي، ولكنني لسببٍ ما، لا أتوقف عن الكتابة لكِ، هل تعلمين أمرًا؟

" صمُتكِ وتجاهلكِ يحُثني على الكتابة لكِ أكثر فأكثر "

أعلم أن الكثير من الأسئلة تجول برأسكِ الآن،

من أنا ! وماذا أريد منكِ؟

وكيف أعلم بشأن الكوابيس التي تراودكِ؟!

تتساءلين عن مدى معرفتي بكِ، ولكنني أعرفكِ ولا أعرفكِ في الوقت ذاته، حيث أنه لا تجمعني بكِ معرفة شخصية، ولم نتبادل أيًا من الأحاديث، ولم نشرب يومًا القهوة سويةً، ولكنني أعرفكِ أيضًا، حيث تقطعين الشارع بهدوء وسرحان، ف أتساءل: ما الذي يُشغل بالها للحد الذي يجعلها لا ترى الأخرين؟!

ثم أنتظركِ حين العودة، لأقرأ وجهكِ، ملامحكِ، وعيناكِ بالأكثر..

فأضيع فيها، إنها عالمُ التيه، لا حدود لها..

ثم أُخبر نفسي: إنها لا تعلم عنكِ شيئًا أبدًا،

وهذا يشُدني لكِ أكثر، أما بما يخُص كوابيسكِ فلن يُخفى القلق والسواد تحتَ عينيكِ على من ينظر لكِ، قد ظننتُكِ لا تنامين أبدًا، تبدين كالشبح، لا يُمكن أن تكوني امرأة أبدًا؛

"إنني متأكدٌ بأنكِ تستطيعين أن تكوني أيُ شيءٍ عدا ألا تكوني انسانًا طبيعيًا، كائنٌ حيٌ مثلُنا!"

وأمرًا مهمًا، لا تنسي الغيبة والنميمة التي تحدُث في الحي وبين الجيران، لقد علمتُ بخصوص طبيبكِ النفسي من خلال أحاديثهم.

ولا أظن أن هذا يعنيكِ على الإطلاق، ولكن سيعني لي كثيرًا إذا قمتِ بالرد على أيًا من رسائلي.

ملحوظة: لن أتوقف عن الكتابة لكِ حتى لو لم تُجيبِ على أيٍ مما أكتبه لكِ.

ضغطتْ على زر الرد على الرسالة، وكتبتْ:

مرحبًا، وليس يعني لي رأيكَ بي واهتمامكَ بمعرفتي، وأن كُنتَ شخصًا عاقلاً ستتوقف عن الكتابة لي.. حيث أنه ليس من مصلحتكَ معرفة شخص مثلي،

شخصٌ لا يملكُ من الحياة سوى البؤس!

ابتعد من هُنا، ما زلتَ قريبًا، قبل أن تُبحر وتقطع الكثير من المسافات.

ملحوظة:

أنصحكَ أن تتوقف عن كتابة الرسائل لي، فلستُ مُهتمة بما تحتويه، ولا مدى قدرتكَ على تحليل شخصيتي، فلا تُضيّع وقتكَ سدى.

عادت لتتصفح كتابها مُجددًا ،قبل أن تتذكر أنّ لديها موعدًا مع الطبيب بعد ساعتين من الآن، حيث قالت بأنها لن تذهب وظلّت تقرأ بنهمٍ تحاول الهروب من الأمر، لا تريد التفكير به؛ كانت تسترق النظر للساعة بين حين وآخر، حيث انقضى نُصف الساعة، ثم ساعةً كاملة، ثم ساعة ونصف، ثم ساعتين..

وفي تلك اللحظة تمامًا وجدتْ نفسها بلا إرادةٍ تقفل الكتاب، تلتقط هاتفها والحقيبة وتذهب نحو الباب مسرعة الخطى.

3

"ما الحقيقة إلا بحر، كلما ظننتَ أنكَ اكتشفتَهُ غرقتَ فيه".

هناك في المكتب الخاص به، وهي تجلس على الكرسي المقابل له، نظر إليها مطولاً، ثم قال:

ها أنتِ أتيتِ، لم يخب ظني أبدًا، نعم وصلتِ مُتأخرة نصف ساعة، ولكن لا بأس،

ما يهم هو أنك أمامي الآن؛ أخبريني كيف شعرتِ بعد أول لقاء! وما الذي دفعكِ للمجيء مجددًا؟

نظرتْ إليه طويلاً وهي متمسكة بصمتها كالعادة، جالت بنظرها في تفاصيل المكان مطولاً قبل أن تجيب عليه وتقول:

هل تُحب السباحة؟

لم يفهم ما علاقة سؤالها في أجابه السؤال المطروح عليها، ولكنه قال:

نعم، لكنني لستُ سبّاحًا، ولا أجيدها كثيرًا.

فقالت: لماذا تريد أن تغرق في حياة الآخرين إذًا؟ لماذا تفعل ما تفعله الآن؟

كيف يمكنكَ أن تنجو من أحزان الآخرين وبؤسهم! معرفة البشر ليس إلا مصدرًا للإزعاج والمشاكل، أليس كذلك؟

رد عليها قائلاً: ربما في مرحلةٍ ما من حياتي لم أستطع إنقاذ نفسي، فكرّستُ وقتي وجهدي لحماية الآخرين، وحمايتهم من أنفسهم قبل كُل شيءٍ.

فأخبريني الآن، كيف بإمكاني البدء معكِ، إلى أين ستاخُذينني! والأهم إلى أين يجب أن نتوجّه! وحدكِ تعرفين الطريق أليكِ، إلى حزنكِ وبؤسكِ ومشاكلكِ، أخبريني من أين يأتي هذا القلق؟ وما مصدر هذا الصمت المُرعب؟!

أعادها سؤاله إلى البعيد.. البعيد جدًا، حيث هُناك الكثير من الأحداث لتروى..

سرحتْ تفكر في أحداث تلك الليلة، وكيف تغيرت بعدها حياتها للأبد.

حيث حدث شجارًا صغيرًا بينها وبين والدتها دون سبب كالعادة، حيث اعتادت والدتها أن تنغّص عليها حياتها باختلاق المشاكل دومًا حتى لأسباب تافهه.

تذكرتْ تلك اللحظة التي قالت لها والدتها:

ليتني لم انجبكِ، لستِ سوى عبءٍ علينا،

بسببكِ تحدث المشاكل بيني وبين والدكِ،

ليتكِ تموتين وأنتهي منكِ.

وتتذكر كيف أنها صمتت بعد تلك الكلمة للأبد، لقد ماتت وهي على قيد الحياة، حيث قررتْ أن تُريح أمها منها ومن المسؤولية تجاهها، كي لا تبقى عبئًا على أحد؛ ذهبت إلى

غرفتها، حضّرتْ حقيبتها الصغيرة، القليل من الملابس، كتابان، دفتر مذكراتها ولعبتها الوحيدة.

تأملت غرفتها كثيرًا قبل أن تُقرر الرحيل للأبد، حفظتْ أماكن الأشياء، رائحتها، الهواء المنبعث منها؛ وقبل أن تقفل الباب ترددتْ قليلاً لتفكر وتتساءل: هل تستطيع الرحيل؟ هل بإمكانها التخلي عن كل شيءٍ والبدء من جديد، من الصفر! حيث أنها لا تملك أي شيء عدا هذه الحقيبة الصغيرة!

ثم عادت كلمات أمها مُجددًا تظهر على السطح، حيث قررتْ بتلك اللحظة ستذهب، لا يهم إلى أين وكيف ستعيش، المهم أن تنجو من هذا المكان..

" أنهُ يخيفها، يخيفها كثيرًا.. يسلِب شعورها بالأمان، على عكس ما يجب أن تكون العائلة والمنزل ! "

قررتْ الرحيل للبعيد جدًا، حيث لا يمكن لكلمات والدتها أن تصل إليها، ولكن.. لم تستطع أن تهرب بعيدًا، فقد لحق بها والدها، أوقفها عن الهرب.. قال بأنها لا تستحق هذه الحياة، فكيف يمكن أن تهرب منها!

إنها تستحق الأسوأ، يجب حبسها في الأسفل عقابًا لذلك، والأهم أنه لا يمكنها أن تحصل على الكتب.. لن تقرأ! ولا يمكن أن تُدوِّن في مذكراتها أيضًا، أنهُ يحرمها الحق في الحياة، لمجرد اعتقاده أنه يملك حياتها، من أخبر الأهل أن أولادهم ملكٌ لهم؟ وأن لهم الحُرية المطلقة في التصرف معهم؟ كيف يمكن لأحدهم أن يقتل الحياة بداخل طفلهِ؟ ألا يؤذيهم

ذلك!! ألا يشعرون على الإطلاق؟ ربما لا يشعرون بشيءٍ، إنهم يفعلون كل شيءٍ بدافع المسوولية لا أكثر.

ولكن كم بإمكانه حبسها بداخل تلك الغرفه؟ كيف لتلك الجدران الصغيرة أن تسع عقلها؟ ألا يظُن بأنها قادرة على الهرب؟ أ لن تحاول النجاة في خضم هذا العذاب؟! ربما، لنرى معًا.

4

"الشيء الذي تهرُب منه، والأمر الذي لا تواجههُ هو من سيُحدد من تكون".

لم يكُن والدي يريد أن يحظى بأطفال، ولكن لحظ أمي السيء انجبتني، كُنتُ عبارة عن خطأ! خطًأ شنيعًا في تاريخهم،

ولقد غير هذا القرار حياتهم للأبد.. لقد ترك أبي أمي مع مسؤولية طفلتها الصغيرة، وذهب ليبحث عن أخرى، أخرى ستُحبهُ هو وحده، ولن تنجب له أطفال! أخرى لن يكون لها مسؤولية سواه.

كُنتُ أرى والدي في الأعياد أو المناسبات المهمة، ولم يكن الأمر إلا لحظاتٍ معدودة، ولم يكن يشعر بأي عاطفة تجاهي، وفي المقابل أنا أيضًا ..

"لا أشعر بأي شعورٍ تجاهه".

لقد كان ينفق المال علينا فقط، حيث لم ينفصل هو ووالدتي انفصالاً قانونيًا، إنما فصلاً في الحياة.. في حياتهم معًا، حيث نمكث بمنزل أنا وهي، ويمكث هو مع أخرى.. بمنزلٍ آخر، لذلك كبرتُ مع أحقاد والدتي، لقد اعتادت أن تسمم

مسامعي أنني السبب بما يحدث؛ ماذا لو لم تنجبني! كان ما يزال والدي يُحبها ولن يتركها كما فعل!

إنها تخدع نفسها، ولكنها لن تدرك ذلك، تخاف من مواجهة الحقيقة، لذلك اختارتني ضحيةً لعذابها، لمشاكلها كي تنجو هي من تأنيب الضمير، بدلاً أن تواجه الحقيقة، هربتْ منها، لتدمّر حياتي دون أن ارتكب ذنبًا بحقها سوى أنني ابنتها!

ماذا! هل طلبتُ منهم أنجابي؟ إن كانوا لا يستطيعون محبتي والاهتمام بي، لماذا انجبوا طفلة إذًا؟

في صباح اليوم الذي هربتُ فيه من والدتي، عثر عليَّ والدي لأعيش جحيمًا آخر، كوابيسًا أخرى.

لم أظن أنني قد أصف والدتي بالرحمة أبدًا، أو أنها تملك العاطفة، ولكن حيث عشتُ مع أبي أدركتُ أن والدتي رحيمةً جدًا رغم تعذيبها، رغم كل ما فعلتهُ بي.

ظننتُ أنه لا يُمكن أن يحل بي الأسوأ منها، فأتى هو ليخبرني العكس.

لقد كان بداية لعذابٍ جديد، وفن جديد، لطالما كانت أمي تعاقبني بالثرثرة عليَّ بكل مشاكلها، ولكن أبي عاقبني بالصمت!

في تلك الغرفة الضيقة التي تحوي نافذة صغيرة فقط، حيث لا توجد كُتب.. ولا يمكن أن أقرأ، وكان هذا أقسى عقاب بالنسبة لي.

لطالما حلمتُ بالكتب طوال فترة بقائي هُناك، حاولتُ تذكر رائحتها، أغلفتها، السطور التّي لونتُها بقلم فسفوري

لأنها تشبهني، والحقيقةَ أن الكلمات تشبهني جدًا، حيث أنها محاصرة بين هذه الأوراق، وأنا محاصرة هُنا بين هذه الجدران، لا أسمع إلا صوتي، ولا أقرأ سوى أفكاري، ولا أرى إلا القليل من الضوء الذي يتسلل الغرفة من شقٍ في الجدار، وأتساءل كيف تبدو الحُرية!

هل هي طعمٌ؟ أم لونٌ؟ أم رائحة؟ أم وصف؟!

ولكنني أسيرة، بحيث لا يمكنني معرفتها أبدًا، هل هي كسر القيود! أم أن أخطو بخطواتي خارج هذه الجدران.. وبعيدًا عن رائحة الرطوبة؟ أم هي الخلاص من العائلة؟ العائلة التي تدمر كل شيءٍ يقف بوجه مصالحها الشخصية حتى إن كانوا أبناءها!!

أرهقتني تلك التساؤلات كثيرًا، وأوقعتني في فخاخها، ولكنني إلى الآن.. إلى هذه اللحظة، ما زلتُ لا أعرف ماهي الحُرية!

ومن يدري، ربما لن أعرف ما هي إلى الأبد!

عُدتُ إلى المنزل مُتعبة، منهكة من الأحاديث عن الماضي، وعن العائلة، وعن كُل شيء، استلقيتُ على فراشي فقط،

أفكر في كُل ما حدث معي! كل تلك الأمور عادت بشدة حين بدأتُ الحديث عنها.

ربما الصمت نجاة، ولكن كيف ينجو المرء من نفسه؟ أفكاره؟ ماضيه؟

5

"لا يمكنكَ النجاة، أنتَ تتوهم فقط".

وصلتْ إليها رسالة مُجددًا:

مرحبًا، ولستُ مهتمًا بنصيحتكِ، على كل حال لن أجادلكِ في الأمر، فقط أخبريني كيف سار اللقاء؟ هل كان الطبيب جيدًا! أم أنه يتظاهر بذلك؟

أثار سؤاله فضولها فأجابت:

كيف يمكن للإنسان أن يتظاهر بأنه جيد؟ أ لن يكشفه الآخرين حين يقوم بذلك؟ هل حقًا يستطيع الناس التظاهر بذلك دون معرفتنا لنواياهم الحقيقية تجاهنا؟

ضحك من كلامها قائلاً: حتى أقرب الناس إليكِ يمكنهم فعل ذلك، الشيء الوحيد الذي يجيده الإنسان ببراعة هو الخداع، في مرحلة ما ستدهشكِ قدرة الناس على الكذب وتزييف مشاعرهم، سترين كيف يكذبون الكذبة تلو الأخرى دون أي ذرة ندم..

الجميع يخبرك:

"احذر من الفخاخ المنصوبة لك بالطريق" ولكن أتعلمين أمرًا: وحدهم الأصدقاء والأقربون لكِ يعرفون طريقكِ، هم

وحدهم من يمكنهم نصب الفخاخ والخداع ولو تشكّلوا على هيئة المخلصين للأبد.

في غرفة الطبيب:

وضع لها القهوة مُرحِبًا بها قائلاً: هذه المرة أيضًا أتيتِ متأخرة دقيقتان ونصف، إنني أتساءل: متى ستأتين على التوقيت الصحيح؟

أجابت: لا يوجد توقيت صحيح ومناسب! الأمور كلها إما أن تأتي مبكرة جدًا قبل وقتها، وقبل أن يكون لكَ رغبة بها، فتفقدها لأنكَ غير شغوفًا بها، أو أنها تأتي متأخرة جدًا حيث ماتت كل رغبتكَ بها، وفات الأوان لمجيئها.

لا يمكنك أبدًا معرفة التوقيت الصحيح ولا الأشياء كذلك.

-حسنًا، اكملي حيث توقفنا، إنني أنتظركِ.

-لا أذكر أين توقف الحديث، ولكنني أعلم ما أود اخبارك به هذه المرة.

هُناك حيث كُنتُ عالقة بين تلك الجدران،

فقدتْ والدتي حياتها تعمّدًا، لقد أخبرني أبي بالأمر دون أن تعتلي وجهه أي تعابير أو ذرة ندم! قال: انظري، إنها لم تستطع أن تعيش سعيدة، لا معكِ ولا دونكِ، فقررتْ الذهاب للأبد.

لا أذكر كيف وصل الخبر إلى مسامعي، ولكنني ما زلتُ أذكر تلك الرجفة التي سرت باوردتي، لقد ذهبتْ أمي هكذا!

وبلا سببًا يُذكر! أ لم تخبرني على الدوام أنها تتمنى الخلاص مني كي تعيش بسعادة؟ ألم تصبُح حرة، لماذا فعلتْ ذلك بنفسها

حين أصبحتْ حرة؟! أمستْ وحيدة وأخافها الأمر، فقررتْ الذهاب جبانة كعادتها دومًا! لم أكن أعلم أبدًا أن كره والدتي لي وتقيؤها الكلمات والحدة والغضب كان السبيل الوحيد لتبقى على قيد الحياة! كانت تشعر بأنها حيّة، وأنها كائن ملموس وموجود ويمتلك الكثير من المشاعر، حين كانت تنفجر بي غضبًا وتلومني على مشاكلها وعذاباتها، لم تكُن والدتي تريد الخلاص مني، أرادت فقط أن تشعر بأنها مُحقة، وأنها على قيد الحياة.

حياة لم تستحق أن تعيشها أبدًا، لكنني أدركتُ ذلك متأخرًا، متأخرًا جدًا، حيث رحلتْ والدتي إلى الأبد، ولا أستطيع اخبارها أنني قد أحببتها رغم قسوتها، وأنها امرأة جميلة رغم ترك والدي لها،

لم تعلم أي شيءٍ عن شعوري على الإطلاق، ولن تعلم بعد الآن، فات الأوان، وذهبتْ والدتي، لا يمكن لكلماتي أن تصلها أبدًا، عندما أدركتُ ذلك كرهتُ والدي، لقد كان السبب بكل شيءٍ، كل السنين التي عشتها مع غضب والدتي وكُرهها لي، ذهابها الآن.. كل هذا بسببه، ماذا لو أنه أحبَنا قليلاً؟ ماذا لو لم يترك والدتي هل كانت اختلفتْ الحياة؟ من يدري!

رحلتْ أمي قبل أن اكتشف ذلك، ولا يمكنها العودة الآن، ولكن قبل رحيلها أنقذتني، ربما أرادت الانتقام لنفسها قبل الذهاب.

"لقد كانت تنقذ نفسها وتتوسل السماح منّي بهذه الطريقة وبدون أدنى كلمات، ولكنني سامحتها حتى حين لم تنقذني".

تخلصتُ من تلك الغرفة والجحيم المسمى والدي بفضلها.

لقد أخبرتْ جميع الجيران أنه أخذ ابنتها منها قسرًا، وأنه يبقيها في مخزن الطعام حيث أن المكان لا يصلح للعيش، لا يمكن للحيوان أن يبقى فيه، فكيف بـ ابنتها الصغيرة التي تملك من العمر 17 عامًا فقط!!

وحين فارقتْ الحياة، هكذا أتاحتْ لي فرصة العيش بعيدًا عنه، ذهبتْ كي تُحررني من حياة عاقبتني بها حين قررتْ انجابي، وكان الثمن رحيلها.

شكاهُ الجميع بعد موت والدتي، وأصبح يتعرَض للسباب والقذف، حيث أتى يومًا غاضبًا وفتح باب الغرفة بقوةٍ، وصرخ قائلاً: اذهبي من هُنا لم أعد أرغب بوجودكِ في منزلي، لقد تلطختْ سُمعتي بسببكِ وبسبب والدتكِ الغبية، لقد حذرتُها مرارًا وتكرارًا أنني لا أرغب بأطفالٍ ولكنها لم تكترث وها هي الآن ذهبتْ، لقد نجتْ، ولكنها تركتْ هذا العبء لي وحدي، ولستُ مجبورًا على ذلك، لم أطلب منها ان تُنجب لي

طفلة، لا يُمكن أن أتحمل عبء قرارٍ طائشٍ طوال حياتي، والآن اذهبي من هنا، ومهما حدث معكِ لا تعودي أبدًا، اعتبري أنني مُتُّ أيضًا، وافعلي ما تشائين لا أكترث لحياتكِ ولا مماتكِ حتى.

كانت تلك آخر كلماتهِ لي، حيث أنني لم أراه بعد ذلك اليوم أبدًا.

ذهبتُ أدور في الشوارع أنا وحقيبتي الصغيرة التي رماها أمام الباب، أبحثُ عن ملجأ نلجأ إليه.. تمددتُ على الكرسي الموجود أمام عمارة صغيرة، فتحتُ حقيبتي وأخرجتُ دفتر مُذكراتي لأدوّن بها:

في تاريخ اليوم الخامس من شهر أغسطس:

ذهبتْ والدتي للأبد، لا يُمكنني رؤيتها بعد الآن.

السبب: والدي، مع كامل كراهيتي وحقدي لشخصه.

ثم بكيتُ بعد ذلك بكاءً مريرًا لأنني كُنتُ أعلم أنني السبب في رحيل والدتي، أو هكذا قال لي أبي، لم أستطع أن أنسى؛ كل تلك الساعات وكلماته ترُن في أذني: لقد ماتت والدتكِ بسببكِ!

لا يُمكن أن أغفر لنفسي أبدًا، ولا يُمكنني أن أغفر له، وبقيتُ على تلك الحال أفكر فيِّ، وفي كُل الأشياء من حولي، حتى أنتصف الليل، وأنا ما زلتُ أجلس بمقعدي أتساءل: ماذا سيحدُث لي؟

-مرحبًا، هل أنتِ بخير؟

استيقظتُ على صوتها، كانت امرأة في الأربعين من عمرها، كانت الساعة السابعة صباحًا، حيث كُنتُ نائمة في المقعد الخارجي، ولا أتذكر متى غفوتُ أبدًا وسط كومة الأفكار وحقيبتي الصغيرة!

أعادتْ سؤالها مجددًا حينما لم تصلها إجابة: هل أنتِ بخير! لماذا تنامين في الشارع؟

أجبتها: لا أملك منزلًا، لقد فقدتُ عائلتي أجمع، وليس لي أيُ قرابة لأذهب إليهم..

نظرتْ إليَّ بشفقةٍ واستعطاف، وقالت: بإمكانكِ البقاء عندي، هذا أفضل من بقاءكِ في الشارع.

نظرتُ إليها بتوجّس وخيفة، حيث فهمتْ ذلك وقالت: حسنًا، هل تظنين أن الشارع آمِنٌ لكِ من منزلي؟ الضرر الذي يمُكنني الحاقهُ بكِ سيُلحقُ بكِ الشارع أضعافهُ، فكري هكذا! هل اقتنعتِ؟

نعم اقتنعت، ولكنني ندمتُ على ذلك أشد الندم، حـ..

-معذرة على المقاطعة، انتهى موعد الجلسة، سنُكمل الموعد القادم.

6

"المنزل هو حيثُ تشعُر بالأمان، والعائلة هي من تحاوطكَ بالحُبّ".

عُدتُ إلى المنزل حيث كُنتُ أبقى، فقطُّ لم يكن منزلاً بالمعنى الحقيقي للكلمة، فلا يسكُنه أحد سوى الوحشة والظلام؛ كنتُ أعلم تحديدًا بأنها ستصلني رسالة الآن من الرقم الذي ما زال مجهولاً بالنسبة لي إلى الآن، ولكنني كنتُ متشوقةً للحديث معه هذه المرة.

مرحبًا، أ لم تُفكري أن تبادري أنتِ بالحديث معي؟ ألا تجتاحكِ الرغبة في الثرثرة مع شخصٍ غريب، والتخفيف من كل أعباءكِ! لماذا تلوذين بالصمتِ دومًا؟ ولما الأنوار غير مُضاءة! ولما الأبواب موصده بأحكام؟! هل تخافين البشر؟ أم تخافين نفسكِ؟ أو بالأصح هل تخافين منهم على نفسكِ؟ أم تخافين عليهم منكِ!!

أجبته بغضب: لماذا تحاول استفزازي بكلماتكَ!! ومن أنتَ لتحكم عليَّ؟ وماذا تعرف عني!! هل تصدق تحليلاتكِ السخيفة لي حين أعبر الشارع من أمامكَ؟

استيقظ أنا، وأعيش في الحياة بامتدادها، لا يمكن لخمس دقائق من وقوفي في الشارع أن تكون دليلكَ في الحكم عليَّ؛

توقف عن التدخل بشؤون الآخرين؛ وأيضًا، لماذا تطرح أسئلةً لا يهمكَ أن تعرف إجابتها؟ هل بدافع الفضول؟

يجب أن تتعلم احترام حياة الآخرين وحدودهم، وأن لا تقحم أنفكَ في شأنٍ لا يخصكَ.

فمهما بدا لكَ أنكَ حكيمًا وتعرف كُل شيءٍ فأنتَ لا تعرف أيُ شيءٍ على الإطلاق، ولا يمكنكَ معرفة الآخرين أبدًا، ففي حين أنكَ لا تعرف نفسكَ تمام المعرفة!!

كيف بإمكانكَ الجزم أنكَ تعرف الآخرين حقًا؟!!

أقفلتُ الهاتف، وذهبتُ لأستحمّ كي أُهدأ من نوبة الغضب، ثم تذكرتُ بعدها أنني لم أتناول شيئًا عدا القهوة منذُ الصباح، فذهبتُ لأحضّر الطعام، وأنا أُعُده تساءلتُ: ماذا لو لم أُصدِق تلك المرأة؟ ماذا لو لم يفتح أبي باب تلك الغرفة ويتركني خارجها بمفترق الطريق دون أن يكون لي خيارًا آخر في ما عشتهُ؟ ماذا لو أنه لم يتركني وحيدة في الشّارع بمفردي طيلة تلك الليلة؟ لو أنه غيّر رأيه وعاد لاصطحابي! هل كُنتُ ذهبتُ معه؟ على كل حال، لِمَ انتظرتُ عودتهُ حتى أشرقتْ الشمس ولم يأتِ! لو أنه اعتنى بي قليلاً لما كُنتُ بحثتُ في الخارج عن أي شخصٍ يأويني، لما عشتُ كل هذا بمفردي.

يوم غدٍ في عيادة الطبيب، هذه المرة ذهبتُ مبكرًا قبل موعدي بـ ربع ساعة، وما زلتُ لا أعرف السبب في حضوري مبكرًا، ولكنه فاجأني حين قال: كُنتُ أعلم بإنكِ ستحضرين مبكرًا؛ ماذا تودين اخباري هذه المرة؟! من أين سنبدأ !

أجبته وأنا تتملكني الحيرة، ولا أعلم ماذا أقول، وكيف سأصف له مشاعري، وكيف أنها استطاعت خداعي بكلمتين ووجهٍ بريء؟ كيف أخبرهُ بحماقتي وأنني وثقتُ بامرأة رأيتها لأول مرة قبل دقائق فقط، وهأنذا أذهب لأسكن معها بمنزلها!

شعر بخيبتي من نفسي التي بدأتْ ملامحها تعتلي وجهي، فقال: لا بأس، جميعنا نُخطئ، أخبريني فقط كيف استطعتِ النجاة من هذا الأمر؟ كيف وصلتِ إلى هنا؟!

-من قال لكَ بأنني نجوتُ؟ إنكَ تتوهم فقط، وافقتُ على الذهاب معها للمنزل، حيث بدت لي سيدة لطيفة ومنزلها مُرتب، وكل شيءٍ بدا لي على ما يرام،

قالت لي: ارتاحي، بإمكانكِ البقاء معي مهما شئتِ، وإذا أردتِ الرحيل لن أمنعكِ أبدًا.

أعدتْ لي الأكل والشراب، وقبل ذلك أرتني غرفة صغيرة، حيث قالت: ستمكُثين هنا.

وسألتني بكل حماس: هل أعجبتكِ؟! بإمكانكِ تغييرها كما تشائين إذا أردتِ البقاء.

ابتسمتُ لها بلطف وقلت: كل شيءٍ جيد، والغرفة جيدة هكذا.

بينما رحتُ أحدث نفسي: هل أنا أحلم الآن، أو ماذا؟ بالنسبة لشخص مثلي كان قبل دقائق ينام في الشارع هذه الغرفة تبدو حلم!

كانت سيّدة لطيفة، أحببتها جدًا، لقد اعتنتْ بي كثيرًا، كُنتُ أظن أنني بعالم الأحلام..

مرَّ شهران وأنا أسكن معها، ننظف المنزل، نقوم بالطبخ، هي تشاهد الأخبار، وأنا أقرأ الكتب.. كان كل شيءٍ لطيفًا، أو بدا لي كذلك قبل أن تطلب مني أن أتزوج ابنها الوحيد، والذي تعتبر هذه الشقة مُلكه وسيعود إليها بعد يومان..

يومان.. يومان فقط، تفصلني عن حياة جديدة! جحيمًا لا يمكنكَ أن تتخيله على الإطلاق..

عمري الآن ١٨ عام، حيث كان عيد ميلادي قبل أسبوع فقط، حيث احتفلتْ بي، واحضرتْ لي كتابًا كهديةٍ منها، وكان هذا يحدث لأول مرة معي، لأول مرة أحدهم يحتفل بعيد ميلادي، يُحضِر لي هدية، وستكون آخر مرة أيضًا.

كنتُ سعيدة جدًا بهديتها، لم أعلم بأنني سأدفع ثمن تلك الفرحة كل ما تبقى من عمري..

مر يوم،

ثم يومان،

ثم أتى اليوم المنشود، استيقظتُ على أثر تنظيف المكان والضجّة حولي، رأيتُ وجوهًا لأول مرةٍ أراها، كان الجميع متحمس كما لو أنه هُناك عرسٌ سيحدث، الجميع بكامل أناقته وهندامه!!

لم أستوعب أي شيءٍ حتى قالت لي: تعالي معي إلى الغرفة.

ذهبتُ معها وأنا أتساءل عن سبب كل هذه الفوضى وسبب حضور الجميع، لم أكن أعلم أنني بعد ساعةٍ من الآن سأصبح عروس لشخصٍ لا أعرف سوى اسمه.. اسمه فقط!

حينما التقيتُ بها ظننتُ بأنها ملاكًا، وأنّ الربّ عوضني بها عِوضًا عن والدتي التي أخذها مني!

ولكن هيهات لقد كانت...

كانت تُخطط لكل شيءٍ منذُ اللحظة التي أخبرتها أنني بمفردي، ولا أمتلك عائلة، لقد بدوتُ لها الفتاة المناسبة كزوجة مطيعة لابنٍ مدلل، حيث أنني سأرضى بكل ما يقولونه لي، وسألبي كل ما يطلبون مني، فليس لديَّ مكانًا آخر أذهب إليه، وليس لديَّ عائلة تحميني.

ماذا لو أتى أبي قبل ذلك اليوم؟ ماذا لو بحث عني وكذب ظن الجميع أنني بلا أحد؟ ماذا لو استطاع حمايتي من هولاء البشر؟!!

ولكن هذه تساؤلات فقط، فلم يأتِ والدي، ولم يبحث عني ولن يفعل ذلك، وسأواجه هذا الحياة بمفردي.

7

"الجُرح الذي تفتحهُ العائلة فيكَ لن يُغلقه الغرباء".

خطر في بالي والدي الآن، هل كان سيعلم بزواجي من هذا الرجل الغريب؟ وهل كان سيمنع ذلك؟

شعرتُ برغبة كبيرة في الكتابة إليه.. رغم أنه لن يقرأ ذلك، ولكنني قررتُ أن أدون بمذكرتي الصغيرة بقايا مشاعر من صحراء الصغيرة، قبل أن أعيش جحيمًا آخر مع رجل آخر، كان النسخة المصغرة عنه!!

بدأت أُدوّن :

إلى المدعو أبي:

(١)

حاولتُ أن أغفر لكَ فغفرتُ

أو ظننتُ أنني غفرتُ..

ثم حين وضعتُ رأسي على الوسادة صحوتُ من ألمٍ برأسي،

ولم أستطع النوم،

ربما لا تذكر أنتَ حين رميتني على الأرض،

وسقطتُ على رأسي!

ولكن الألم ذكرني مُجددًا

لقد آلمني حينما غفرتُ لكَ
وبكيتُ وقلتُ لن أغفر ..
ثم حاولتُ أن أنام على جانبي
ففزعتُ مرة أخرى من الألم
ربما لا تذكر أنتَ
حينما كسرتَ يدي..
وأنتَ تجُرني خلفكَ!
تساءلتُ هل أغفر؟؟
رغمًا عن كل هذا؟
ثم عادتْ سياط كلماتكَ الحادة لتنهش جلدي
كُل تلك الكلمات التّي قذفتني بها..
كُل جام غضبكَ وحقدكَ..
وكل تلك الأوصاف التي وصفتني بها..
فعدتُ أبكي مُجددًا
حيث أدركتُ أنني لم أغفر لكَ
فلا أستطيع أن أغفر
ولا يمكن أن يغفر لكَ شيءٌ بعد الآن
لقد قتلتَ كُل شيءٍ لكَ بداخلي
ولم يبقَ شيئًا واحدًا بإمكانه
الغفران لكَ..
بكيتُ لأنني ظننتُ أنني غفرتُ لكَ
ولم أستطع!

(٢)
لطالما حاولتُ إنقاذكَ دومًا
ولطالما واصلتَ أفعالكَ دون توقف
حاولتُ كثيرًا أن أنجو ولو مصابة بالخدوش
على أن أغرق هُناك..
في بحر غضبكَ وكراهيتكَ
وفي كلماتكَ السامة التي لطالما قُلتها لي..
كُنتُ دومًا أغفر لكَ، أُجمِّل صورتكَ في عينيَّ
خشيةً أن أفقدكَ..
ولكنكَ لم تخف أبدًا
لقد صببتَ جام غضبكَ وحقدكَ عليَّ.
لقد تقيأتَ كراهيتكَ للحياة بأُذني..
ورغم ذلك
حاولتُ أن أنجو، حاولتُ أن أنسى
أنسى كلماتكَ السامة
الخدوش على جلدي
وفي النهاية عُدتُ وحدي أُجمِّل صورتكَ
وأخلق الأعذار لكَ كي لا أخسركَ
لقد بكيتُ خشيةَ أن أفقدكَ
أنتَ الذي لطالما أذيتني بلا سبب!!
هذه المرة بذلتُ قُصارى جهدي كي تبقى بداخلي
كي لا ترحل على آثار كلماتكَ السامة..

حاولتُ كثيرًا أن لا تموت
ولكنكَ أبيتَ ألا تفعل..
والآن! ها أنتَ جُثةً ليس إلا!
(٣)
لطالما كُنتُ وحدي، ولا أحد
لا أحد في الجوار
لاقريب، ولا بعيد
لا أحد يقول لي كلماتٌ تربّت على كتفي
تُخفف مُصابي
لا أحد
وحدي كُنتُ وحدي
في آلامي،
وبفرحي، وضحكي
بحُزني الأبدي
ولا أحدًا كان هُناك لأجلي
لا أحد
كُنتُ مع الجميع حين حزنوا،
كنتُ أمسح لهم الدموع..
كُنتُ أقف بوجه أحزانهم،
وكنتُ دومًا عونًا ومدافعًا
ولم أتخلَّ عن ولا أحد..
ثم أن الجميع تخلَّوا عني، كما لو أنهم لا يعرفونني!

لا كبيرًا ولا صغيرًا أيضًا
فقط كما لو أنني لا أحد.
حتى الذين حميتهم من أنفسهم..
تركوني لنفسي، لحزني، لأوهامي
بلا سلاحٍ، بلا حُبٍّ، بلا عطفٍ
حتى الذين استنجدت بأسمائهم
لم يأتوا، كانوا بعيدين
بعيدون جدًا، حيث أن صوتي لم يصل إليهم
فبقيتُ وحدي، مع وحدتي أفكر..
في الذين خسرتهم، والذين قد بقوا
لم أكن أعلم مما أشكو..
ولكنني كُنتُ أبكي
أبكي الأشخاص والكلمات، والقسوة
والحضور، والغياب، والأشياء
حتى بكت كُل أشيائي معي..
وكل أشيائي هي أنا
وعيناي المملوءة بالدموع
ولا أحد..
ثم حين تساقط دمعي
سقط معه كُل شيء..
كل الذين قد رحلوا
وكل الذين لم يرحلوا بعد

حتى لم يبقَ أحد.

أقفلتُ مذكرتي وعُدتُ إلى الواقع حولي،

أتى الابن الغائب عن والدته، والذي سيصبح زوجًا لي بعد عدة دقائق...

كيف، لا أعلم!

ولكنهم قد خططوا لكل شيء، كما لو أن حياتي مسرحية تمثيلية ولقد فصّلوا لي الدور على مقاسي، فقط يجب أن أنفّذ المطلوب منّي، كما هو مكتوب على الورق،

والآن أصبحنا متزوجان وسنسكُن معًا في هذه الشقة لمُدة عامين!

حيث سيصبح عمري عشرون، وسأقرر قرارًا يغير ما تبقى من حياتي!

8

"حياةٌ أخرى ليست من اختياري أيضًا".

كان أصعب أمرٍ أعيشه، أن أتعرف إلى شخص يسكُن معي بنفس المنزل، ولا أعرف عنه أي شيء؛ هل هو جدير بالثقة؟ هل يستحق الحُبّ؟ وهل سأحبهُ أيضًا؟! والأهم من كل ذلك، هل أستطيع أن أكون بأمان معه!!

ولكن دعني أخبركَ شيئًا:

" الطفل الذي لم يحصل على الحُبّ من والديه لا يستطيع أن يشعُر بالحبّ أبدًا، حتى وأن أحبهُ العالم أجمع "

الذي لم يجد الأمان في عائلته، لن يجدهُ بمكانٍ آخر، والذي انكسر من تصرفات والديه، لن يرمم الغُرباء كسره، بل سيقومون بكسره أكثر..

بدايةً عشنا معًا، ولحسن حظي لم يكُن ينتظر مني أي شيء، وكنتُ سعيدة جدًا بأني لستُ مُلزمة أن أقدّم له أي شيء.. استمر الأمر هكذا شهورًا، كُنتُ فقط أقوم بواجباتي المنزلية كما لو أني خادمةٌ فقط!!!

" لقد كان كثير الكلام والثرثرة، وكنتُ على العكس منه كثيرةَ الصمت "

بدا لي صعب الإرضاء، وكان يتذمرُ على كُل شيء، وحين أقول كُل شيءٍ فإنني أقصد كل ما قد يخطر ببالكَ، قد يصرخ فجأة بأنّ المنزل غير نظيف رغم أنني نظّفته قبل ساعة فقط! سأقول له: نظّفتُ، وسيقول أنني لم أفعل، وسينتهي بي النقاش وأنا أنظّف المنزل مجددًا، حتى استسلمتُ مؤخرًا، لم أعد أناقشه حتى أفعل ما يقول بلا جدال، لأنني لم أعد أحتمل أن أسمع صوته.

كُنت مستعدة أن أفعل كل شيء عدا ألا أسمع صوته، عدا ألا أرى وجهه بجواري؛

كرهتُه لهذا الحد وأكثر، فلم يكُن كائنًا يستحق الحُبّ على الإطلاق، وأنا أنظر إلى تصرفاته أتأمل شخصًا كَنت أعرفه في الماضي!!

كلما رأيتهُ حضرتْ لي ذكريات شخصٍ ما .. شخصٌ أعرفه جيدًا! نعم، كما خمّنتَ، أنه والدي.. لقد كان النسخة المُصغرة عنه،

كما لو أنّي اخترتُ أبي مرة أخرى!

انظر إلى القدر! إنه يُخبركَ: لا يُمكنكَ أن تتجاوز أبدًا! وكلما نسيتَ سأذكرك دومًا، ستكون لديكَ الكثير من الذكريات الجديدة كي تتذكر ماضيكَ فيها!!

كُنتُ أعلم بأنه لا يُحبني، ولم يتزوجني من أجل الحصول على الحُب، فأنا أعلم الآن دون أن أرى ذلك ودون أي دليل، فهو واقعٌ بحب أخرى، ولديه الكثير من العلاقات..

وصدقًا لم أكن أهتم لا لعلاقاته ولا خياناته، إن صحّ أن نسميها خيانة، علمًا بأنه لا يوجد أي علاقة بيننا! كُنتُ أقول: ليفعل ما يشاء طالما هو بعيدًا عني،

حيث سررتُ كثيرًا بانشغاله مع الجميع عني، فهذا لا يجعلني التزم بأي شيء اتجاهه، وهذا ما جعلني مُرتاحة في هذه العلاقة السامة، وما كان يجعلني أنفّذ كل طلباته دون أن أناقشه بذلك، كنت أنفّذ فقط، كما لو أنني آلي دون أي اعتراض.

يومًا عن يومٍ استمررتُ في كرهي له، وكبر غضبي وحقدي تجاهه، ولكن الأصل في هذا الغضب والكراهية كان والدي.. فكنتُ أكره الاثنين معًا، وكنتُ أرى بأنهما من دمرا حياتي، فلقد سمحتُ لكرهي لهما أن يُدمرني؛ هذا الكُرهُ دمرني أنا فقط، لم يضر أي شخصٍ آخر عداي، لم أكن لأستطيع النجاة وأنا أحمل هذا الكُره والغضَب بداخلي، حيث كان غضبي ككتلةٍ تكبر يومًا عن يومٍ، حتى أتت تلك اللحظةِ التي ابتلعتني فيها مشاعر الغضب والكُره، والتساؤلات، فكل يومٍ كُنتُ أفكر: ماذا لو أحبني والدي؟ ماذا لو لم يتخلَّ عني؟ هل كُنتُ سأكون هُنا الآن؟ هل كُنتُ سأوقّع على حياة جديدة مع شخصٍ خاطئ؟! بل هل كُنتُ سأضطر للنوم في سرير رجلٍ سأقوم بقتله يومًا ما؟

في إحدى اللحظات، حيثُ كُنتَ مشغولةً بالتنظيف، ولم ألقِ بالاً لأي أمر، فلا يوجد أحدًا غيري في المكان، كان

يجب أن أشغل نفسي عن التفكير ولو أنني لا أُفلح كثيرًا في الهروب من أفكاري.

وماذا بمقدوري أن أفعل بعد؟

إن قام هذا الكائن الغريب الذي أقطُن معه بنفس المكان بإحراق كُتبي ودفتر مذكراتي؟ حيث قرأ كُل ما كتبتُ وقام بالسخريةِ مني، كان يمزّقها بكل مُتعة، لقد استمتع كثيرًا وهو يقوم بتعذيبي، لقد وجد الكثير من المتعة في رمي الكلمات عليّ، ولكن لم يكن الأمر ليؤذيني كثيرًا،

فكما قلتُ لكَ: الطفل الذي يكبر دون الحصول على الحب من والديه، لن يهتم إذا لم يحبه أي شخص آخر؛ بل أنني كُنتُ أرى بأني شخصٌ لا أستحق الحُبّ، وماذا سيُحَب بي؟ وأي شيءٍ فيّ سيدفعهُ لمحبتي؟!

أنا التي لم أحصل على حُب والدتي، ووالدي الذي زرع الكُره والغضب بداخلي فقط، كيف يمكنني أن أرى الحُبّ في الأشياء؟! كيف يمكنني أن أفكر بأنّ أحدهم قد يُحبني حقًا!!

قطع عني التفكير صوته في الجوار،

لقد دُهشتُ لعودته مبكرًا، كان صامتًا فقط، نظرَ إليّ نظرةً غريبة، أراها به لأول مرة،

ثم قطع صمتهُ حيث قال: أنا جائعٌ احضري لي الأكل.

أول مرة سررتُ بأنني سمعتُ صوته، لقد أنقذني من تلك النظرات، حيث لم أصدق بأنهُ طلب مني احضار شيء لأهرب من أمامه بكل سرور..

ولكن هل نجوتُ منه؟!

لم أنجُ، لا ذلك اليوم، ولا الآن ولن أنجو منهُ إلى الأبد.

حين رأيته علمتُ بأنه يريد الحصول على جسدي بالقوة، ولكنني لم أستطع حماية نفسي منه، وفي الأخير حصل على ما يريد! أ ليس هذا ما سيجعله يقوم بكسري وإذلالي أكثر فأكثر؟

لقد علمتُ قبلاً أنه لن يتوانى في فعل أي شيء، بل قد دهُشتُ لصبره عامًا ونصف!!

وها هو الآن يُقرر كسري وقتلي بكل ما يستطيع فعله، ربما لو قام بقتلي لكان الأمر أسهل من هذا الألم، أهون من هذا العذاب والإذلال!

كان بإمكاني احتمال أن أُحبَس في أبشع الأماكن، أن أموت من البرد والجوع والمرض على ألا يلمسني، أن لا تلتصق رائحتهُ بجسدي، وها أنا الآن أستحمُّ آلاف المرات، وقد يمُر يومًا كاملاً أبقى فيه تحت صنبور الماء، أفرغ كُل علبة الشامبو على جسدي، ولكن رائحتهُ لا تذهب.

لم يعد بإمكاني الخلاص منه حتى وإن كان ليسُ هُنا، وهذا كان أقسى عقاب بإمكانكَ فعله لأحدهم على الإطلاق.

9

"لقد قتلتُهُ في قلبي تلك الليلة وإلى الأبد"

منذُ تلك اللحظة وأنا شخصٌ مكسور، لا يمكنكَ تخيُل الإذلال الذي شعرتُ بهِ،

لم أعد أستطيع النظر إلى وجهي حتى، أصحبتُ أطفئ الأضواء.. أُغلق المرايا، وكل ما يمكن أن أرى وجهي من خلاله أو أشعر بي، أصبحتُ شبحًا أتجوّل في الأرجاء فقط.

لقد كرهتُ والدي، تمنيتُ لو يموت، تمنيتُ لو يشعُر بالذُل كما أشعُر به الآن، تمنيتُ لو أراه لأقذف كل كراهيتي وحقدي بوجهه،

وبكيتُ لأنني لا أستطيع أن أراه، وبكيتُ لأنهُ ليس بمقدروه تخيُل ما أعيشه الآن أبدًا..

كل هذا يحدُث بسببه، ولكنه لا يعلم، أريده أن يموت في قلبي، ألا أتساءل مجددًا: هل بإمكانه إنقاذي يومًا ما! أو هل سيبحث عني؟ هل سيعود لأجلي؟ أُريد فقط أن أتوقف عن انتظاره، أن يخمُد ألم كلماتهِ التي لطالما كانت نارًا تُسعِر في كبدي، بكيتُ حتى الصباح، بكيتُ لأنني أُريدُ الخلاص منّي، من والدي، من هذا الرجُل، من كل هذه الحياة، ولكنني لم أكن أعلم كيف الطريق لخلاصي؛ بكيتُ لأن قلبي مُمتلئٌ

بالحقد والكُره، وهذا لم يضر أحد سواي، الجميع سعيد ولديه حياته ومستقبله، أنا وحدي فقط من تدمرتْ حياتها ومُستقبلها، أنا وحدي من أعيش بهذا الغضب والكره؛ بكيتُ لأنني لم أستطع محبة نفسي، طوال الوقت كُنتُ ألوم الجميع، لكنني لم ألُم نفسي لأنها لم تقدم لي الحُبّ، لم ألُم نفسي على الرضاء والاستسلام لهذا الذُل والألم؛ بكيتُ لأنني رضيتُ ولم أبحث عن حلولٍ أخرى، سمحتُ للجميع بالتحكم بي، ولم أملك زمام حياتي؛ بكيتُ لأنني كُنتُ جبانة، لم أُحِبّ نفسي، لم أُنقذها، لم أفعل شيئًا لأجلها، لأنني لطالما كرهتُ والدتي لجبنها واستسلامها، دون أن أشعر بأنني أصبحتُ نسخةً أخرى عنها، بينما أنا لم أحاول محبة نفسي وإنقاذها، كيف يُمكن لأحدهم أن يُحبني، وأن يسعى لإنقاذي! بكيتُ لأنني صحوتُ متأخرةً كثيرًا، لأنني أدركتُ متأخرة أنه كان بإمكاني إنقاذي قبل أن أعيش كُل هذا، قرارًا واحدًا بالرفض كان بإمكانه إنقاذي من هذا الذُل والانكسار..

لو أنني استطعتُ محبة نفسي فقط، لو رأيتُ أني كائنًا يستحق الحُب، ربما لم أكن لأسمح لأحدهم بتعذيبي، كُنتُ سأنقذ نفسي من هذا الألم قبل أن أصدق تلك المرأة، ماذا لو أنني رفضتُ عرضها؟ وذهبتُ للبحث عن حلول! كان عمري وقتها ما يقارب ١٨ عامًا، ربما كان بإمكاني إيجاد وظيفة، إيجاد عمل وإعالة نفسي، ماذا لو أنني بحثتُ عن حلول بدلاً عن الاستسلام!! لو أنني توقفتُ عن كُره عائلتي! لو

تخليتُ عن هذا الكُره والغضب وغفرتُ لهم! كان بإمكاني ربما محبة نفسي واسعادها، ولكنني صحوتُ متأخرة حيث لم يعد بإمكاني التخلص من هذا الغضب، ولم يعد بإمكاني النجاة أبدًا.

بكيتُ كرهي لنفسي، كرهي لعائلتي، كرهي لهذا الرجل، بكيتُ حتى قذفتُ بكل الأشياء من داخلي، حتى توقفتُ عن الشعور، حتى مات الجميع وقلبي أيضًا، ولا أخفيكَ أمرًا، حينما صحوتُ كُنتُ شخصًا آخر، شخصٌ آخر على الإطلاق، كما لو أنني نزعتُ قلبي من مكانه ورميته،

لا شيء، فراغًا كبيرًا فقط.

-هل شعرتِ بالراحة حينما قتلتِ الجميع بداخلكِ؟ هل توقف هذا الألم والعذاب؟!

-نعم، لقد مات، ولا أستطيع وصف الراحة التي شعرتُ بها؛ هذه المرة لا محاولات، ولا تساؤلات، ولا إنقاذ؛ لا شيء فقط، إنه بالنسبة لي: " ميتًا، ينام، يأكل، يشرب، ويمشي على رجلين فقط " لا يمكنهُ أن يفعل بي شيئًا، لقد توقفتُ عن رؤيته، لم أعد أراه بعد الآن، ولا يمكن أن يؤثر بي، ولا تستطيع كلماته إلحاق الأذى بي مُجددًا، لقد مات.

وأصبحتُ حُرةً من محاولة إنقاذ نعشٍ متحرك، وها هو الآن جُثة لا تستطيع أن تلمسني أبدًا.

10 |

"استيقظتُ مُتأخرًا جدًا على إصلاح حياتي، لم يعد بإمكاني إصلاح إيُ شيءٍ بعد الآن".

عُدتُ إلى المنزل مُرهقة جدًا، فلقد وصلتُ تقريبًا إلى نهاية قصتي، أردتُ التوقُف لأنني تعبتُ من الماضي، من التذكّر، من سرد الأحداث، أردتُ أن أستريح بقدر الإمكان قبل أن أصل إلى نهاية الأمر؛ لقد أخبرتهُ بأنني لن آتِ لفترة من الزمن، وعليه أن يُقدّر ذلك، إن أراد مني الاستمرار في اخباره بقية القصة، فوافق على ذلك قائلاً:

حسنًا، بإمكانك المجيء متى شعرتِ أنكِ بخ..

قاطعتهُ قائلة: متى شعرتُ بأنني جاهزة للنهاية سآتي..

هذه المرة أردتُ الخروج إلى الخارج، والنظر إلى النّاس والتأمل في الحياة كيف تبدو، لقد عبرَ الكثير من أمامي وأنا جالسةٌ على المقعد، فقط أنظر للوجوه وأتأمل بها.. أحدهم بدا لي سعيدًا، وآخر بدا مشغولاً، وأحدهم جُل تركيزه على الهاتف،

وأحدهم بدا بائسًا من الحياة، وأحدهم بائعًا متجولاً لم يكُن له هاجس إلا كيف يكسُب قوته لليوم!

إذا نظرنا للأخرين سنجد الكثير من الحياة والكثير من الأشياء التي نجهلها، الحياة لا تتوقف لحُزننا أبدًا، قد أكون حزينة أنا وأجلس على هذا المقعد ولكن هذا لا يعني توقف الحياة في الخارج.. لا شيء يتوقف إلا الشخص الحزين، أما الحياة فتستمر؛ أنظر إلى الزاوية تلك، هُناك شخصٌ ما ممسكٌ بالهاتف يتحدث عن عمله، وهذه تطلب لنفسها الأكل بحماسٍ لأنها جائعة؛ حينما ننظر إلى الآخرين، بإمكانهم أن يكونوا مرآتنا للنظر لأنفسنا، لحياتنا، لنرى أين توقفنا، فالجميع لن يتوقف عن الأكل لأنكَ حزين، والجميع لن يترك عمله لأنكَ حزين، أنتَ وحدكَ فقط من تتوقف..

وأنا أتفكّر في الأشياء من حولي، مرّت بجانبي فتاة، نظرتْ إليَّ بابتسامة، وبادلتها النظرة باستغراب!!

ذهبتْ إلى البريد، والذي كان بزاوية الشارع أيضًا، مد لها العجوز بظرف ووقعتْ على الاستلام، ثم عادت مع نفس الطريق، ولكن الأمر الغريب بالنسبة لي أنها توقفتْ، لقد رأتني!!

لأول مرة يراني أحدهم.. ويتوقف بجانبي! لطالما ظننتُ أنني شبحًا غير مرئي !!

أتتْ وجلستْ بجواري، حاولتُ ألا أهتم وألا أُبدي أي ردة فعل.

بدأتْ الحديث معي: مرحبًا، هل بإمكاني الجلوس؟

هززتُ برأسي دون أن أنطق بحرف، وأنا تتملكني الصدمة، ووجهي تعتليه ملامح التعجّب: هل هي تتحدث معي!!

نظرتْ إليَّ وقالت: يبدو أنكِ لا تحبين الحديث، لا بأس، لن أزعجكِ أبدًا، رغم أنني أشعُر برغبةٍ في اللعب معكِ، أحِب تلك اللعبة، وبالأخص أحب أن ألعبها مع الغُرباء.

لم أستطع كسر حماسها، خصوصًا أنها مبتسمة طوال الوقت، فقلتُ لها: بإمكاني اللعب معكِ، ماهي اللعبة؟

-بوليانا، هل تعرفينها؟ أنهُ كتاب لطيف جدًا، ربما قرأتيه قبلاً ؟

-هززتُ رأسي بلا.

-فقالت: جيد هيا نلعبها؛ أولاً لنفكر بالجانب السيئ، فكري معي بالأشخاص المصابين بالعمى، بالأشخاص الموجودين في السجون الآن، يتساءلون عن الحُرية! هل أنتِ معي؟

هززتُ رأسي بنعم .

-حسنًا، الآن لنفكر بالجانب الجيد، نحُن هنا الآن، ننظر للشارع، وننظر إلى المارّة، نستمتع بهذه المناظر وهذه الحُرية، أ لسنا محظوظين؟!! لأننا أحرار؟ لأننا نملك نعمة البصر، نستطيع أن نرى الجمال في كُل شيء؟!

بقيتُ صامتة فقط..

فقالت: حسنًا، دعينا من اللعبة.

هل تملكين أصدقاء؟ هل يترك لكِ أحدهم رسائل في البريد؟

أجبتها بالنفي: لا أملك أي صديق على الإطلاق.

قالت: حسنًا، ليس بذلك السوء، لا، عليكِ،

أنا ايضًا لا يمكنني القول بأنه لديَّ الكثير من الأصدقاء.

ثم قامت بإخراج الظرف من حقيبتها، ومدتْ بيدها لي، وهي تنظر بابتسامة، وقالت: حسنًا، دعيني أكون أول شخص يضع لكِ رسالة بريدية.

وضعتْ الظرف بيدي وذهبتْ.

بقيتُ أحدّق بها حتى اختفتْ..

ثم عُدتُ إليَّ، لأفتح الظرف بيدي، أخرجتُ الرسالة من داخله، ورحُتُ أقرأها،

كان مكتوبًا بها:

مرحبًا،

كيف حالكِ؟

ربما تكون الأيام صعبة، واليوم يشبه الأمس، والغد يُشبه اليوم، ربما قلبكِ عاجزٌ لا أكثر، فلا شيء أقبح من العجز، الأمل، الملل، الإنتظار،

هذا الخوف الذي يسكُنكِ الآن، من الحياة، من المجهول، من الطُرقات التي نعبُرها، من العابرين الذين يحاولون انتزاع شيئًا منكِ وترك شيءٍ آخر فيكِ، من تلك الأشياء التي تبدو مطموسة غير محددة العوالم، لا نعرف

بدايتها أو نهايتها، شيءٌ ما يجثم على الفؤاد لا نعرف ما هو، ولكنه شعور بائس، يُثقل خطواتنا، يُربكُ مشاعرنا، تتملكنا الحيرة منه.

يومًا ما، لا يُشبه أي يوم، ستكبرين يا عزيزتي، وحينها ستفهمين سبب مرورِكِ بكل هذا، ستجدين أن الأشياء كانت منطقية، فقط روحكِ التي كانت مُتعبة ومنهكة من الأحداث، والأشخاص، وكل ما مررتِ به.

ستكبرين، وستكونين ممتنة لما حدث، للغرباء الذين فتحتِ لهم الباب كرمًا وحين خروجهم كسروا نوافذكِ..

لأولئكَ الأشخاص الذين جعلوكِ حذره، والذين كذبوا وخلفوا الوعود، لو لم تعرفيهم لكنتِ ساذجة تظنين الحياة مُجرد سعادة فقط، كنتِ سترتكبين المزيد من الأخطاء لو لم تلتقِ بهم..

حينما ستكبرين عزيزتي، ستكونين ممتنة لكل شيءٍ ما مرّ من عبركِ وغيركِ، لولا الخيبات وأشباه الأصدقاء، لولا الأحزان لما عرفنا قيمة الأشياء الصادقة والمُخلصة، لما قدّرنا الضحكة الصافية والنابعة من قلبٍ نظيف..

" كُل شيءٍ سيمُر عزيزتي، وأنتِ وحدكِ من تحددين كيف سيمُر وكيف ستؤثر عليكِ بقاياه. "

عُدتُ إلى المنزل وما زلتُ تحت تأثير الرسالة أفكر بها.. أقلِّب كلماتها في عقلي،

لماذا الآن؟

لما أعطتها لي أنا من بين الجميع!

ماذا تعرف عنّي؟ ثم حينما تحدثتْ عن الحُرية يا ترى هل كانت تعلم بشأني؟

هل كانت تعلم بنهاية قصتي؟ النهاية التي اخفيتها عن الجميع، التي حاولتُ تأجيلها بقدر ما أستطيع!! هل كانت تعرف ذلك؟

قاطعتُ أفكاري وقمتُ مسرعةً نحو منضدة السرير، أخذتُ هاتفي وقمتُ بالإتصال بهِ، رنّ الهاتف قليلاً قبل أن يصلني صوته قائلاً:

مرحبًا، كعادتكِ لا تعرفين الوقت الصحيح والمناسب، ثم أن موعدكِ في الغد لماذا تستعجلين الأمر؟ هل حدث شيءٌ مهم حتى أنكِ لا تستطيعين الإنتظار للغد؟

قُلتُ له: لن يكون هناك غدًا، اتصلتُ لأودعكَ فقط، حكايتي تنتهي هُنا.. ظننتُ بأنكَ ستدرك الأمر، ولكنكَ لم تفعل، ربما يومًا ما ستفهم وستدرك أن حكايتي انتهتْ تلك الليلة، قبل أن أرى الصباح وضوء الشمس مجددًا وإلى الأبد.

11 |

"ستأتي النهاية دومًا على عكس ما تتوقعها".

يومًا ما تركني والدي خارج باب المنزل، حيث نظرتُ فوجدتُني أقف في الشارع أنا وحقيبتي الصغيرة، فبدأتْ حكايتي من هُناك..

واليوم تنتهي حكايتي بعد ثلاثة وعشرون عامًا من تلك اللحظة، حيثُ يقف والدي الذي أصبح عجوزًا الآن خلف الباب كي يلتقيني ولكنه لا يستطيع.

في عيد ميلادي العشرون وصلتُ إلى هذا المكان، حيث قمتُ باتخاذ هذا القرار كي أقوم بالتخلص من كُل شيء، كان جدالاً بسيطًا كالعادة، كما كان يحصل معي خلال العامين السابقَين، ولكنني هذه المرة لم أحتمل، لقد فاق بي الغضب واستحوذتْ عليَّ الكراهية، لم أكُن أريد منه سوى أن يصمت فقط، أردتُ اسكاته، أردتُ لصوته أن يختفي إلى الأبد، لكنه لم يكُن ليصمت، لطالما كان كثير الكلام، لم يكُن ليتوقف أبدًا، فكُرتُ في طريقةٍ لإيقافه، لم يخطر ببالي سوى هذه، ذهبتُ إلى المطبخ، نظرتُ إليه مطولاً؛ لعامين، عامين كاملين

وأنا أُعِد له الطعام، ولم يقُل شكرًا لمرة واحدة، عامين كاملين لم يقُل لي: تُعدين طعامًا جميلاً..

ولا يمكنهُ أن يتحدث بعد الآن، لقد فات الأوان.

خلف القضبان، وأنا أستعيد تلك اللحظة التي أتيتُ بها إلى السجن، إلى هذه الزنزانة الصغيرة قبل عشرون عامًا تقريبًا،

لا أعلم أي شعور شعرتُ به وأنا أغرس السكين بقلبه كي يموت مباشرة، ثم أُخرجها وهي مملوءةٌ بدمه..

أُحضر حقيبتي الصغيرة، وأخرج مقفلةً الباب خلفي على جثته الملوثة بالدماء،

عبرتُ الطريق ويداي ملوثة بدمه، أتيتُ إلى هُنا، نظر إليَّ الجميع بخوف، صاح بي أحدهم: توقفي عن الحركة وضعي السكين جانبًا.

ثم كبّل يداي ووضعني في هذه الزنزانة،

أتى أحدهم بعد ساعةٍ ليأخذ معلوماتي، ليعرف ما هي جريمتي التي ارتكبتُها، سألني: ما هو اسمكِ؟

فأجبته دون النظر إليه: صحراء.

فقال: كم عمركِ؟ وأين والديكِ؟ ما هي جريمتكِ؟ ولما سلمتِ نفسكِ؟!

لقد طرح الكثير من الأسئلة كما توقعتُ.

أجبتهُ أيضًا: عمري عشرون عام، وليس لدي عائلة.

سلّمتُ نفسي لأنني ارتكبتُ جريمة، قتلتُ الرجل المدعو زوجي، لطالما تمنيتُ موته، ولطالما أغضبني صوته، فأردتُ أن يختفي للأبد، لقد أزعجني كونه نسخة مصغرة عن والدي.

ثم تم إصدار الحكم بقضيتي، ولم أدافع عن نفسي أبدًا، لقد أردتُ البقاء في هذه الزنزانة بعيدًا عن كُل شيء؛ كان هذا السبيل الوحيد لحريتي وخلاصي من كل شيء، كان عليَّ أن أفعل ذلك.

طوال بقائي هُنا كتبتُ الكثير من القصص عنّي، في أحدهم أملك عائلة وأسافر معهم حول العالم، وفي إحداها أمتلك الكثير من الأصدقاء، وشريكًا رائع للوقوع في الحُبّ، وبقصة أخرى أتحدث إلى طبيب نفسي أخبره عني، والكثير من القصص لا أعلم على أي نسخة عثرتَ أنتَ !

ولكن لا يهم ذلك، ففي كل القصص كانت النهاية نفسها تحدُث بكل النسخ عني، كُنتُ أرتكب هذه الجريمة وأسلّم نفسي.

أصبح عمري الآن أربعونَ عامًا، مُندهشة جدًا كيف مرت تلك الأعوام، وأكثر ما أدهشني زيارة المدعو أبي، لقد أتى، أوصله البحث عني إلى خلف القضبان، ولكننا لم نلتقِ، لقد كان يأتي في كل شهر مرةً، ولكن لم أقبل أي من محاولاته..

وماذا سيحدث إن تقابلنا بعد فوات الأوان؟ أ لم أرتكب جرمًا كي أهرب منه؟! كي أتخلص من كل ماضيّ وذكرياتي معه! هل عاد الآن يريد التحدث إليَّ!

لم يكن باستطاعتي أن أقبل زيارته، لقد أتيتُ هُنا منذُ عشرون عامًا، بحثًا عن الراحة، لا يمكن أن يفسد عليَّ سجني أيضًا!

لقد رفضتهُ بكل مرة، ولكنه ظل مصرًا على القدوم.. لا يهم، لا يعني شيئًا حضوره بعد الآن، كان يمكن أن يعني شيئًا لو باستطاعته إعادة عشرون عامًا من عمري.

إنه موعد الطعام، قاطع أفكاري صوت السجانة!

حيث أحضرتْ ما يشبه الأكل وقالت لي:

أ لن ترحمي هذا العجوز؟ أنه ينتظر في الخارج منذُ قرابة الساعة! سنتان ونصف ألم تغيري رأيكِ أبدًا؟

سنتان ونصف حيث عثر والدي على مكاني، وعمرًا كاملاً من حيث أضعتُ أب!

- ألن تتحدثي كعادتكِ؟ منذُ أتيتِ إلى هُنا وأنتِ كثيرة الصمت، لا نعلم سوى اسمكِ،

صحراء!!

هل تظُنين أنكِ الوحيدة هُنا؟

"هذه السجون مملوءة بالأبناء الذين لم يحصلوا على حب والديهم.."

ليست السجون فقط، بل الحياة بأكملها.

وبما أنكِ دودة كتُب، ربما قد قرأتِ هذا للكاتب الشهير تولستوي:

إنها العائلة، إما تخلق إنسانًا، أو كومة من العُقد.

جميعنا عُقد من نتاج العائلة، لستِ وحدكِ.

كُل ما تخاف حدوثه، سيحدُث بلا شَك!

منشورات الواحة